إقامة الصِّفة شِبه الجُملة مُقام المَوصُوف في تَفْسِير البحر المحيط

"دراسة في البنية والتركيب والدَّلالة"

Replacing Semi sentence Adjectives in the Explanation of "Al-Bahr Al-moheet"

"A Study in Structure, Style and Semantics".

إعداد

حسناء عليّ فريد

الملخص:

إنَّ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ) تَفْسِير مُهِم، لا يَقْتَصِر على تَفْسِير القرآن، بل يَمْتَدُ ليشمل الكثر مِنَ المسائل الجديرة بالدراسة والتحليل، ومِنْ هذه النصوص المُتعلقة بالمركبات المتلازمة كالصِّفة والموصوف، فيتحدث هذا البحث عن ظاهرة إقامة الصِّفة شِبه الجُملة في تفسير البحر المحيط "دراسة في البنية والتركيب والدَّلالة"، فيوضح أثر البنية في التركيب وما تقدّمه مِنْ معنى جزئي لفهم التركيب، وإنَّ البنية والنحو يتحدان مَعًا لخدم الجانب الدلاليّ وَفَهْم التركيب، وَقَدْ جاء الحديث فيه عن مبحثين وهما مجيء الصِّفة جارًّا ومجرورًا، وَمَجِيء الصَّفة ظرفًا، ومِنْ ثَمَّ تُقام الصِّفة الشبه جملة مُقام موصوفها لغرض الاختصاروالإيجاز.

الكلمات المفتاحية:

إقامة الصِّفة شِبه الجُملة مُقام الموصوف- التحليل اللُّغويّ في التركيب – الجارُّ والمجرور- الظَّرف.

Abstract:

The interpretation of Al-Bahr Al-Moheet by Abu Hayyan Al-Andalusi (d. 745 AH) is an important interpretation, not limited to the interpretation of the Qur'an, but it extends to include many issues worthy of study and analysis, and from these texts related to concomitant compounds such as the adjective and the descriptive, this research deals with the phenomenon of replacing the semi-sentence adjective in the interpretation of Al-Bahr Al-Moheet is a "study in structure, composition and semantics." It explains the effect of structure on composition and the partial meaning which presents for understanding composition, the structure and grammar unite together to serve the semantic aspect and the understanding of the structure, The study will be divided into two sections: the adjective coming as a preposition and noun, and the adjective coming as an adverb, and thus the adjective semi-sentence is established in the place of its description for the purpose of brevity and abbreviation.

توطئة

اسْتعملَ النُّحاةُ شِبه الجُملة ما بَيْنَ اعْتبارها قِسْمًا مُسْتقلًا بذاته، وما بَيْنَ اسْتعمالها كجزءٍ مِنَ الجُملة الاسميَّة أو الفعليّة على حَسَبِ تقدّيرِ المَحذوف، والبحث هنا يُفْرِدُ لها الحديثُ باعتبارها قِسْمًا مُسْتقلًا برأسه والتركيز على مجيئها صفة لموصوف محذوف، فهل يمكن أنْ تأتي شِبه الجُملة صِفة لمَوصُوف محذوف؟ وما السرّ في إقامة الصِّفة مُقام الموصوف باعتبار الحذف وسيلة إجرائيَّة لظاهرة الإقامة؟

وقد تَبَيَّنَ أنَّ المَوصُوف يُحذَف وتُقام الصِّفة مُقامه، مع أنَّ الصِّفة جاءتْ مِنْ أجله، وَمَعَرُوفٌ أنَّ بين الصِّفة والمَوصُوف ترابط، والأصلُ في الكلام أنْ يَرْتَبطَ بعضه ببعض وهذا هو البيان، فالكلام لا يُفيدُ إلَّا إذا ارتبط بعضه ببعض، ولذلك قِيلَ: إنَّ الإسنادَ هو مَناطُ الفائدة نحو: إسْناد الْفِعْلِ إلى الفاعل والصِّفة إلى المَوصُوف.

وتلحظ الباحثة أنَّ الأمر لا يَتَوقفُ على مُجرّدِ بيان أنَّ شِبهَ الجُملةِ صفةٌ قامَتْ مُقام مَوصُوفها فقط بَلْ يَتَخطى الأمر لما في التركيب مِنْ قرائن لفظيَّة ومعنويَّة تربط التركيب بعضه ببعض وَتعلّق شِبه الجُملة بالْفِعْلِ أو بِمَا في معنى الْفِعْل، وبذلك تَتَضَافر القرائن اللّفظيَّة والمعنويَّة وما في التركيب مِنْ تَعلّق لِخدمة المعنى.

أهداف البحث:

١- بَيَان أثر البنية في تحليل التراكيب، والتأكيد على أنَّ معاني الصِّيغ الصرفيَّة وأنَّها وثيقة الصلة بالعلاقات السِّياقيّة في التركيب.

٢- النظر في البنية والنحو والدَّلالة جُملة، وبيان مدى ترابط وتَعلّق التركيب بعضه ببعض، فالكلام لا يُفيدُ إلَّا إذا تَعلَّق بعضه ببعض.

عناصر البحث:

١- مِهاد عن شِبه الجُملة
٢- المبحث الأوَّل: مجيء الصِّفة جارًّا ومجرورًا
٣- المبحث الثَّاني: مجيء الصِّفة ظرفًا
٤- خاتمة بأهم النتائج
٥- قائمة بالمصادر والمراجع

منهج البحث:

أمَّا المنهجُ المستخدمُ في هذا البحث، فهو المنهجُ الوصفيّ التحليليّ الاستنباطيّ، وذلك مِنْ خلال تتبع ظاهرة إقامة الصِّفة شِبه الجُملة مُقام الموصوف، بطرح شواهدها القرآنيَّة في تفسير البحر المحيط، وعرض ومناقشة آراء النُّحاة القدامى في ظاهرة إقامة الصِّفة مُقام الموصوف، مع طرحِ بعض الآراءِ الجديدةِ في تحليل الظَّاهرة.

مهاد:

كما يتأتى الحذفُ في الموصوف في الصِّيغة المُفْرَدة المُشتقة، فيتأتى حَذْفُ الموصوف في الصِّفة شِبه الجُملة، ومعروف أنَّ الجُملة تنقسمُ إلى جُملة اسميَّة وفعليَّة وظرفيَّة؛ والجملة الاسميَّة هي التي صدرها اسم، والفعليَّة التي صدرها فعل، والظرفيَّة أو شبه الجملة هي المُصَدرة بظرفٍ أو مجرور، ولها أحكامها القريبة مِنَ الإفراد والجُمل، حَيْثُ شِبه الجُملة تتركب مِنْ أَكْثَرَ مِنْ كلمة، ولا تتركب مِنْ كلمات كالجُملة، ولا تتركب أيضًا مِنْ كلمةٍ واحدةٍ كالمُفْرَدِ، فتكون شِبه جملة؛ لأنَّها ليس لها تركيب كامل كالجملة الاسميَّة أو الفعليَّة، فتنقسم إلى الجارّوالمجروروالظَّرف.

المبحثُ الأَوَّل: مجيء الصِّفة جارًّا ومجرورًا

تعريف الجارَّوالمجرور:

"لا يكون الاسمُ مجرورًا إلَّا بالإضافة، وهي المقتضية للجرِّ، كما أنَّ الفاعليَّة والمفعوليَّة هما المُقتضيان للرفع والنصب، والعامل ههنا غير المُقْتَضي كما كان ثَمَّة، وهو حرف الجرِّ أو معناه، في نحو قولك: مررْتُ بزيدٍ"(١)، فالجارُّوالمجرور هو حرف الجرّوما أضيف إليه وهو الاسم المجرور، وحروف الجرّجمعها ابن مالك في قوله:

هَاكَ حُرُوفَ الجرِّ، وهِيَ: مِنْ، إلى حَتَّى، خَلَا، حاشا، عَدَا، في، عَنْ، عَلَى
مُذْ، مُنْذُ، رُبَّ، اللَّام، كَيْ، وَاوٌ، وَتَا وَالْكافُ، والباءُ، وَلَعَلَّ، وَمَتَى

"هذه الحروف العشرون كُلُّها مختصة بالأسماء، وهي تَعْمَل فيها الجرّ"(٢)

وهكذا يَنْبَغِي أنْ يكون لكلِّ حرفِ الجرّاسم مجرور، ولذلك الجارّوالمجروربينهما

ما يُسمَّى بالترابط أو التضام، والتضام هو "تطلب إحدى الكلمتَيْنِ للأخرى في الاستعمال على صورة تَجعل إحداهما تستدعي الأخرى"(٣) حَيْثُ حرف الجرِّ يَسْتدعي الاسم المجرور، والجارّوالمجرورمعًا يُسمَّي شبه جُملة؛ لأنَّها لا تؤدي معنًى مُستقلًا في الكلام رغم أنَّها مركبة مِنْ كلمتَيْنِ ولكنها ليسَتْ مُستقلة، ولذلك لا بُدَّ للجارّوالمجرور مِنْ تعلّق، وهذا التعلّق إنَّما يكون بالفعل أو بما في معنى الفعل، فيقال: إنَّه "لا بُدَّ مِنْ تعلُّق الجارّوالمجرور بفعلٍ؛ ماضٍ أو مضارعٍ، أو أمرٍ، ولو كان ناقصًا على الأصح، أو بما في معناه، مِنْ مصدرٍ أو صفةٍ أو نحوهما، والمُراد بالتعلُّق: العمل في محلِّ الجارّوالمجرور نصبًا أو رفعًا"(٤)، ومِنْ ثَمَّ يكون تركيب الجارّوالمجرور لا بُدَّ أنْ يتو افرَ فيه أمران وهما: قضية التعلُّق، وقضية المحلّ أيّ: المحلّ الإعرابيّ للجارّوالمجرور، حَيْثُ يكون صفة في محلِّ رفع أو نصب أو جرّ.

فتَبَيَّن أنَّ بَيْنَ الجارّوالمجرورترابط وتضام، وحرف الجرّقرينة لفظيَّة، ولكنّ هذا الترابط بينهما لا يفيد معنًى مُستقلًا ومعنى مُكتملًا في السّياق، بَلْ لا بُدَّ مِنْ قرائن أخرى معنويَّة تُعيِّن على فَهْمِ هذا السِّياق ويَحتاج إليها، فتلك "العلاقاتُ السياقيّة قرائن معنويَّة تُفيدُ في تحديد المعنى"(٥)، ومِنَ القرائن المعنويَّة هنا قرينة التعلُّق، وهو ارتباط الجارّوالمجرور بالفعل، أو بما في معنى الفعل، فتلكم القرائن اللفظيَّة والمعنويَّة تَتَحِدُ مَعًا ليستدل بها على فَهْمِ المعنى مِنَ السِّياق؛ لأنَّه لا تَدلّ قرينة بمفردها على المعنى النحويّ، وإضافة إلى أنَّ الجارَّوالمجروريكون صفة، وهذه الصِّفة لا بُدَّ لها مِنْ موصوف ترتبط به، أي بينهما ترابط وتلازم، فكلُّ هذه القرائن إنَّما تكون لخدمة المعنى داخل السِّياق، ومِنْ ذلك نماذج كثيرة في القرآن الكريم عرضها أبو حيان في تفسيره، حيثُ وقوع الجارّوالمجرورصفة لموصوف محذوف، وهذا الحذف ما هو إلَّا قَدْرٌ مِنَ البلاغة والجمال لا يكون في الذِّكْر.

ومِنَ الآيات القرآنيَّة التي جاء فيها الجارُّوالمجرور صفة لموصوف محذوف قوله تعالى:﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾(٦) نجد في الآية الكريمة أنَّ "الواو في قوله (وإنَّ منكم) للعطف، وقال ابن عطية (وإنْ منكم إلَّا واردها) قسمٌ، والواو تقتضيه...وذَهِلَ عن قول النَّحويينَ أنَّه لا يَسْتغنى عن القسم بالجواب لدَّلالة المعنى، إلَّا إذا كان الجوابُ باللَّام أو بأنْ، والجوابُ هنا على زعمه بأنْ النافية فلا يجوز حذفُ القسم على ما نَصُّوا، وقوله: الواو تقتضيه يدلُّ على أنَّها عنده واو القسم، ولا يذهب نحويٌّ إلى مِثْلَ هذه الواو واوُ قسمٍ، لأنَّه يلزم مِنْ ذلك حذف المجرور وإبقاء الجارّ، ولا يجوز ذلك إلَّا إنْ وقع في شِعرٍ أو نادر كلام بشرط أنْ تقوم صفة المحذوف

مقامه، كما أوّلوا في قولهم: نعم السَّير على بئس العير، أي: على عير بئس العيرُ...وهذه الآية ليستْ مِنْ هذا الضَّرب؛ إذْ لم يحذف المُقسم به، وقامتْ صفته مقامه"(٧).

على أساس ما عرضه فقوله: (وإنْ منكم إلَّا واردها)، فالواو إمَّا أنْ تكون عاطفة على الآية التي قبلها، أو أنَّ الواو تقتضي أنْ تكون (وإنْ منكم) قسم، ولكن ما يذهب إليه النحويون أنَّ القسم لا يستغني به عن الجواب، إلَّا إذا كان جوابُ القسم بإنْ، وعلى الرغم مِنْ أنَّ جواب القسم هنا بإن، فلا يجوز إلَّا بشرط حذف الموصوف و إقامة الصِّفة مُقامه، مع إضمار القسم فيه فيكون التقدِّير: وإنْ أحد منكم إلَّا واردها، أو وإنْ منكم إلَّا مَنْ واردها، فتكون (إنْ) نافية، و(منكم) جارّ ومجرور وهو صفة لموصوف محذوف مُقدر بكلمة نكرة وهي (أحد)، لكن على أصل أنَّ الجارَّ والمجرور مُتعلقان بخبر مُقدَّم محذوف تقدِّيره (أحد)، وإلَّا أداة حصر واستثناء، وواردها: اسم فاعل وهي مبتدأ مُؤخر لمنكم.

فهنا تركيز على القاعدة النحويَّة الثَّابتة وتحقيقها فكان تفسيره للجانب المعياريّ، ولكن مجيء قراءة أخرى وهي قراءة "ابن عباس، وعكرمة، وجماعة (وإنْ منهم) بالهاء للغيبة على تقدّم مِنَ الضَّمائر"(٨)، فتشير هذه القراءة إلى التفات مُهْم، يقول الزَّمخشري "وإنْ منكم التفات إلى الإنسان، ويَعْضُدُه قراءة ابن عباس وعكرمه رضي الله عنهما (وإنْ منهم) أو الخطاب للناس مِنْ غير التفات إلى المَذْكور"(٩)، فنجد الضَّمائر في الآيات التي سبقتْ هذه الآية بلفظ الغيبة كقوله (لنحشرنهم) و(لنحصرنهم) و(أيَّهم) و(بالذين هم)، ثُمَّ جاء هنا بلفظ الحضور (منكم)، فالالتفات هو أسلوب بلاغيّ مُستعمل في اللُّغة العربيَّة "يشمل التنوع بين الضَّمائر والانتقال مِنْ معنى إلى معني"(١٠) أيّ: التحول مِنْ أسلوب إلى أسلوب آخر، ونقل الكلام مِنْ وجه إلى آخر، وقد "عَلل النُّحاةُ ذلك بأنَّه نوعٌ مِنَ الالتفات الذي يهدفُ إلى تأكيد المعنى وتقويته، لما يتضمّنه بالضرورة مِنْ إثارة لانتباه السَّامع وشَحذ لِفكرِه، حين يفاجأ بضمير يَعودُ على غير ما هو له، فيبذل مِنْ طاقاته الفكريَّة ما يكشف به ما يعود إليه...وبذلك لا يظل السَّامع في موقف سلبي دائمًا، يتلقى مِنَ المُتكلِّم أو الكاتب ما يقول دون جهد منه...و إنَّما يُشارك إيجابًا في النشاط اللغويّ حتى وإنْ كان سامعًا، فيحقق بذلك هدفًا أساسيًّا للنشاط اللغويّ، وهو أنْ يكون وسيلة اتصال اجتماعيّ حقيقي... وليقدّم مِنْ جهوده الماديَّة وطاقاته الفكريَّة ما يدلُّ به على عُمْقِ هذا الاتصال وحيويَّة هذه المشاركة"(١١). وَمِنْ ثَمَّ كان الغرضُ في الآية الالتفات والاهتمام وجذب الانتباه، وكسر الذاكرة للانتباه والتركيز على معنى جديد، وذلك بالالتفات والتحول إلى ضميرٍ جديدٍ، وهو ضمير المُخاطب والحُضور بعد ضمير

الغيبة.

فيكون الخطاب في قوله: "(وإن منكم) التفات عن الغيبة في قوله :لنحشرنهم ولنحضرنهم؛ عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتَّى لا يبقى مجال للالتباس المُراد مِنْ ضمير الغيبة، فإنَّ ضمير الخطاب أعرفُ مِنْ ضمير الغيبة، ومُقتضى الظَّاهر أنْ يقال: وإنْ منهم إلّا واردها.

واسْتعمالُ القرآن الصِّيغةَ الصرفيّة هنا اسم فاعل دون غيرها مِنَ الصِّيغ، فيه دقة كبيرة، فهي صيغةٌ ثابتة لا تتغير، حَيْثُ يدلُّ اسم الفاعل على الشيء كدَّلالة العَلَم على صاحبه، أي يلازمه دلالة ثبوتة يقينيَّة لا تغير فيها ولا شك، فلا يكون إنسان إلَّا وهو وارد جهنم، فما مِنْكم أحد مِمّن نُزع مِنْ كلِّ شيعة وغيره إلّا وارد جهنم حتما قضاه الله، فلا مُبدل لكلماته، أي فلا تحسبوا أنْ تنفعكم شفاعتهم، أو تمنعكم عزة شيعتكم، أو تلقون التبعة على سادتكم وعظماء أهل ضلالتكم، أو يكونون فداء عنكم مِنَ النار"(١٢).

واختلفوا في معنى الورود(١٣)هاهنا؛ في قوله (وإنْ منكم إلَّا واردها)، وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله واردها، قال ابن عباس رضي الله عنه، وهو قول الأكثرين؛ معنى الورود هاهنا هو الدُّخول، والكناية راجعة إلى النار وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر، ثُمَّ يُنجي الله المتقين فيخرجهم منها، والدّليل على أنَّ الورود هو الدخول: هو قول الله عزَّ وجلّ حكاية عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾(١٤).

وقال قوم ليس المُراد مِنَ الورود الدُّخول، وقالوا: النار لا يدخلها مُؤمن أبدًا، لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ (١٥)، وقالوا: كلّ مَنْ دخلها لا يخرج منها، والمُراد مِنْ قوله (وإنْ منكم إلَّا واردها) الحضور والرؤية لا الدخول، وقِيلَ بإنَّه يعني بها القيامة(١٦)، فليس الورد الدخول لجميعهم، فعن ابن مسعود، والحسن، وقتادة هو الجواز على الصّراط؛ لأنَّ الصّراطَ مَمْدود عليها، وعن ابن عباس: قد يرد الشيء ولم يدخله كقوله ولم يدخله، كقوله:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾(١٧) ووردتْ القافلة البلد، ولم تدخله ولكن قربت منه أو وصلت إليه، وقِيلَ إنَّ الخطاب جاء هنا للكفار أي: قُل لهم يامحمّد،

فيكون الورود في حقهم الدخول، وعلى قول مَنْ قال الخطاب عامٌ وأنَّ المؤمنين والكافرين يدخلون النار ولكن لا تضرُّ المؤمنين وهذا فيه شناعة قولهم يدخلون النار وإنْ لم تضرّهم(١٨).

ومِنْ ثَمَّ نجد الاختلاف كثيرًا في الورود هل يكون للمؤمنين والكافرين أم يكون يكون للكافرين فقط، ولعل أرجحَ الأقوالِ أنَّ المؤمنِيْنَ سيمرون عليها، ولكن ذلك لا يضرُّ مَنْ كان عمله صالحًا، وهذا يتناسب مع البنية الصرفيَّة، فالصراط مَعْروفٌ أنَّه جسر على جهنم، فمنهم مَنْ يمرّ سريعًا، ومنهم مَنْ يتعثر ويسقط مِنَ العُصاة والمُذنبِيْنَ، فالعُصاة هم مسلمون ولكن سيدخلون النار عقابًا لهم، ومعلوم أنَّ النبي سيشفع لهم ويخرج خلقًا كثيرًا، فيكون كُلّ حسب عمله، في حين أنَّ الكفار مُخلدون في جهنم، فيكون وردهم أي دخولهم لها دائم.

وبعد ما عُرِضَ في الآية الكريمة مِنَ الجدير بالذِكْرِ في هذا المَقام أنَّ توضيحَ أسلوب الالتفات بَعْدَ توضيحِ حُكْمِ القاعدة النحويَّة، يُشِيرُ إلى أنَّ فَهْمِ النصَّ لا يكون بتوضيح القاعدة النحويَّة المعياريَّة فقط، فقد كان النصُّ نحويًّا بلاغيًّا، حَيْثُ كشف على مسلك بلاغيّ جديد إلى جانب القاعدة المعياريَّة الثَّابتة، فكان خروجٌ إلى تغييرٍ جديدٍ، فبذلك كان الاعتمادُ على الجانب النحويّ كما كان الاعتماد على الجانب البلاغيّ مُسْتندًا بذلك إلى سياق الاستعمال والتواصل الخارجيّ، وَمِنْ خلال هذا المثال التطبيقيّ تَتضحُ المُوافقةُ بَيْنَ المناهجِ اللغويَّة الحديثة، حَيْثُ اسْتعمال الجوانب اللُّغويَّة وغير اللغويَّة في تحليل النصّ والكشف عن دلالته وجوانبه المُختلفة.

المبحــث الثَّاني

مجيء الصِّفة ظرفًا، وهو المُسَمَّى المَفْعُولُ فيه

الظَّرف: لُغَةً

"ظَرْفُ الشيء: وِعاؤه، والجمع ظُرُوف، ومنه ظُرُوف الأزمنة والأمكنة...الظَّرف وعاء كلّ شيء حتى إنَّ الإبريق ظرف لما فيه"(١٩).

الظَّرف: اصطلاحًا

"هو ظرفا الزَّمان والمكان، وكلاهما مُنْقَسِمٌ إلى مُبْهَمٍ، ومُؤقَّتٍ، ومُسْتَعْمَلٍ اسمًا وظرفًا، ومُسْتَعْمَلٍ ظرفًا لا غير، فالمُبْهَمُ نحو: الحين، والوقت والجِهات السّت، والمُؤقت

نَحْوَ: اليوم، والليلة"(٢٠).

وَعَرَفَ ابن الحاجب "المفعول فيه هو ما فُعِل فيه فِعْلٌ مَذْكُور مِنْ زمان أو مكان، وشرط نصبه تقدِّير في، وظروف الزَّمان كلها تقبل ذلك، وظرف المكان إذا كان مُبْهما قبل ذلك وإلَّا فلا"(٢١).

مِنْ أنماط إقامة الصِّفة مقام الموصوف مجيء الصِّفة ظرفًا، وذِكْر شِبه الجُملة الظَّرف بعد الجارّ والمجرور؛ لأنَّه يتشابه مع الجارِّ والمَجْرُور في أحكامه مِنْ حيثُ التعلّق(٢٢) بالفِعْلِ أو بما في معناه، فيتعلّق الظَّرف أيضًا بالفعل أو بما في معناه، و أيضًا تشابه معه في المحلِّ الإعرابيّ، حيثُ يَقَعُ الظَّرف في محلِّ إعرابيّ فيكون في موضع الصِّفة، ويحدث أنْ يكون موصوفها محذوفًا، فهذا الظَّرف لا بُدَّ له مِنْ التعلّق ولا بُدّ له مِنْ رابط يربط جملة الصِّفة بالموصوف، كما أنَّ الصِّفة تأتي ظَرفًا وتَصِفَ مَوصُوفًا مُقدّرًا نكرة، والنكرةُ إذا وصِفَتْ حددتْ، فمن ناحية الحمل على المعنى تكون معرفة، فهل يمكن أنْ يُقال أنَّ مِنْ أنواع التعريف مجيء الصِّفة بعد نكرة فحملًا على المعنى تكون النكرة معرفة؟

ومِنْ صور إقامة الصِّفة شِبه الجُملة الظَّرف مقام الموصوف قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾(٢٣) فتكون "(دون) في موضع الصِّفة لمحذوف، أي: ومِنَّا قومٌ دُون ذلك، ويجوز حذف هذا الموصوف في التَّفضيل ب(مِنْ)، حتَّى في الجُمل قالوا: مِنَّا ظَعَنَ، ومِنَّا أقامَ، يُريدون: مِنَّا فريقٌ ظعن، ومِنَّا فريقٌ أقامَ"(٢٤).

فالبنية التركيبة للآية هنا تؤكد حذف الموصوف و إقامة الصِّفة مقامه، وتقديره: ومِنَّا قومٌ دون ذلك، وذلك على اعتبار أنَّ مِنَّا: جارّومجرور في محلّ رفع خبر مقدّم، وقومٌ: مبتدأ مؤخر مرفوع؛ وهذا المبتدأ المقدَّر هو الموصوف، ودُونَ: ظرف مكان منصوب بالفتحة في محلِّ رفع صفة لموصوف محذوف تقدِّيره قومٌ، حيثُ الصِّفة تتبع الموصوف في المحلِّ الإعرابيّ.

والظَّرف الواقع صفة هنا لا بُدَّ مِنْ تعلّقه -الظَّرف- بالفعل أوبما في معناه فيقال: "جميع ما ذَكَرناه في الجارّوالمَجرور مِنْ أنَّه لا بُدَّ مِنْ تعلُّقه بفعلٍ أو ما في معناه، ومِنْ كونه صِفة للنكرة المحضة، وحالًا مِنَ المعرفة المحضة، ومُحتملًا للوصفيَّة والحاليَّة بعد غير المحضة منهما، وغير ذلك ثابت للظَّرف، فلا بُدَّ مِنْ تعلقه بفعل، زمانيًّا كان الظَّرف أو مكانيًّا"(٢٥)، فجاء الظَّرف (دون) في محلِّ "صفة بعد النكرة المحضة"(٢٦)، وكلمة قومٌ

المقدّرة التي وصِفَتْ بالظَرف هي نكرة مَحَضَة، والنكرة إذا وصِفَتْ حددتْ، فقد حَدَدَ هنا القوم دُونَ الصالحيْنَ، فاكتسبت النكرة المعرفة مِنَ الوصف، فهذا تعريف بالوصف، فمجيء الصِّفة للاسم النكرة، فصار حملًا على المعنى معرفة، وهذا الظرف مُتَعلّق هنا بالفعل (كُنَّا) أي: ومِنْ دون الصالحين كنا طرائق أيّ. فرقًا شتى منهم المؤمن والكافر.

والظَّرف يأتي صفة، وكما يتعلّق الظَّرف بالفعل، فلا بُدَّ لجملة الصِّفة مِنْ رابط يربطها بالموصوف(٢٧) أيضًا، والرّابط هنا رابط لفظيّ مذكور، وهو كلمة (ذلك) حيثُ ربط الصِّفة (دون) بالموصوف المحذوف (قومٌ)، وهنا نضيف أيضًا أنَّ حذف ذلك المحذوف جاء بعد (مِن) التبعيضيَّة، أي التي بمعنى بعض، وهذا ما أشارنا إليه في تحليل مثال سابق في الجارّوالمجرورعندما مجيئه صفة لموصوف محذوف بعد (مِنْ) التي بمعنى بعض.

وهنا جاءتْ الآية مُخْبِرة عن الجن وأحوالهم، فقد قالوا مخبرين عن أنفسهم "إنَّ منا الصالحون ومنّا دون ذلك" فكما أنَّ الجنَّ قبائلٌ مُخْتلفة، فَهُمْ كذلك أصحاب مِلل مُخْتَلفة، وفيهم المُؤمن والكافر، يقول القُرطبي: هذا مِنْ قول الجنّ، أي قال بعضهم لبعض لما دعوا إلى الإيمان بمحمد – صلى الله عليه وسلم– وإنا كنا قبل استماع القرآن منَّا الصالحون ومنَّا الكافرون، وقِيلَ: ومِنَّا دون ذلك، أي ومن دون الصالحين في الصّلاح(٢٨). فأصبحوا "بذلك فريقين فريق صالحون وفريق ليسوا بصالحين، وهم يعنون بالصالحين أنفسهم وبمن دون الصلاح بقية نوعهم، فلما قاموا مقام دعوة إخوانهم إلى إتباع طريق الخير لم يصارحوهم بنسبتهم إلى الإفساد، بَلْ ألهموا وقالوا منَّا الصالحون، ثُمَّ تلطفوا فقالوا: ومنَّا دون ذلك الصَّادق بمراتب متفاوتة في الشر والفساد؛ ليتطلب المخاطبون دلائل التمييز بين الفريقَيْنِ، على أنّهم تركوا لهم احتمال أنْ يُعنَى بالصالحين الكاملون في الصَّلاح، فيكون المعنى بمن دون ذلك مَنْ هم دون مرتبة الكمال في الصَّلاح، وهذا مِنْ بَلِيغِ العباراتِ في الدعوة والإرشاد إلى الخير"(٢٩).

وفي تقدِّير الموصوف المحذوف بكلمة نكرة وهي قومٌ أو فريقٌ، هذا فيه دلالة لأنَّ المعروف أنَّ النكرة تفيد الشيوع العموم في قوم الجنّ، فلما جاء الإخبارعن الجنّ فقالوا: وإنَّ مِنَّا الصالحون ومِنَّا دون ذلك، فقد أفاد المعنى عموم الجنّ فكان منهم الصالحون ومنهم قومٌ دون الصلاح، فالنكرة المُقَدّرة في هذا الموضع هي المقصود وهي تناسب السِّياق هنا، بعكس المعرفة التي تفيد التحديد والتعيين، وهذا غير مناسب هنا؛ لأنَّ سياق العموم يحتاج لتقدِّير نكرة، وإضافة إلى ما يفيده الظَّرف الوصفيّ مِنْ معنى حيثُ يخرج

عن الظرفيَّة المكانيَّة ليفيد معنى الانحطاط في المرتبة وهم دون الصالحين، فكانتْ بداية الآية إنَّ مِنَّا الصالحون، ومنهم مَنْ هم دون ذلك في المكانة فهم الكافرون.

وقوله (كنَّا طرائق قددًا) أي: فرقًا شتى، وقال الضحاك أديانا مُختلفة، والمعنى: أي لَمْ يكنْ كلُّ الجنِّ كُفارًا، بل كانوا مُختلفينَ، منهم كُفَار ومنهم مُؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. قال المسيب كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس.

وذكر بعض العلماء أنَّ هذه المذاهب المُخْتلفة في الجنِّ إنَّما هي بعد مبعث الرسول – صلى الله عليه وسلم- واستماعهم للقرآن فأصبحوا مُخْتلفونَ مِنْهم المؤمنون ومِنْهم الكافرون(٣٠)، فهذا القول مِنَ القُرطبي دليلٌ على أنَّهم كانوا فرقًا شتى قبل استماعهم للقرآن، فمَنْ سَمَعَ القرآنَ منهم قد أخبروا عن أنفسهم، بقولهم وأنَّا منَّا الصالحون ومنَّا دون ذلك، فعبروا عن حالتهم قبل سماعهم للقرآن باستخدام لفظ الفعل الماضي (كُنَّا) دليل على انتهاء ذلك بعد سماعهم القرآن.

خاتمة بأهم النتائج:

١- إنَّ شِبه الجُملة مِثْلها كالجملة الإسميَّة والفعليَّة، قِسْمٌ مُسْتَقل برأسه، وَلَكِنَّها تَتَعلَّق بِفِعْلٍ أو بِمَا في مَعْنَى الْفِعْل، وتأتي صِفة لِمَوصُوف مَحْذُوف، فَتَقُوم مُقام مَوصُوفها.

٢- الحذفُ في التركيب يكون تَخْفِيفًا واكتفاءًا بِعِلمِ المُخَاطب بما هو مَحْذُوف، وهذا تَركيز على دَورِ المُخاطب باعتباره ركنًا أساسيّ في تحليل الخطاب.

٣- مِنْ أهم القرائن اللّفظيّة التي تدلُّ على حَذْفِ المَوصُوفِ حذفه بَعْدَ (مِنْ) التي بمعنى (بَعْض)، وَبَعْدَ نَفِي، وهما علامتانِ تَدلَّانِ على حذف الموصوف.

٤- لا يكون التركيز في تَحَلِيلِ الخطاب على المُتكلِّم والمُخاطب والنصّ فقط، بَلْ المَقام أيْ الظُّرُوف المُحِيطة لها دَورٌ مُهِمٌ في تَحْلِيل النصِّ القرآنيّ.

المصادر والمراجع:

١- الأزهريّ، الشيخ خالد زين الدين بن عبد الله، شرح قواعد الإعراب، المُسَّمى مُوصل الطُّلاب إلى قواعد الإعراب، تحقيق: د.خالد حسان، مكتبة الآداب، ط٣، ٢٠١٨م.

٢- الأندلسيّ، أبو حيان مَحمّد بن يوسف، البحر المحيط في تفسير القران العظيم، تحقيق د. عبد الله بن عبد المُحسن التركيّ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربيَّة والإسلاميَّة، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

٣- البغويّ، أبو محمّد الحسين بن مسعود، تفسير البغويّ "معالم التنزيل"، حققه مَحمّد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبه، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٤- ابن الحاجب، جمال الدين عُثمان بن عمر، الكافية في علم النحو والشَّافية في علمي التصريف والخط، تحقيق د. صالح عبد العظيم، مكتبة الآداب، القاهرة.

٥- د. حسان، تمام، اللُّغة العربيَّة معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط ٦، ٢٠٠٩م.

٦- الزَّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمّد الخوارزميّ:

- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبه وظبطه محمّد عبد السَّلام شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط٦، ٢٠١٥م.

- المُفَصَّل في صنعة الإعراب، تحقيق ودراسة د. خالد حسَّان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٧- د. طبل، حسن، أُسْلُوب الالتفات في البلاغة القرآنيَّة، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٩٨م.

٨- ابن عاشور، الإمام محمّد الطَّاهر، التحرير والتنوير، الدَّار التونسيَّة للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٩- ابن عقيل، بهاء الدين بن عبد الله المصريّ، الهمدانيّ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط ٢٠، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٠- القُرطبيّ، أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق د. عبد المُحسن التركيّ، مُؤسسة الرسالة.

١١- د. أبو المكارم، عليّ، أصول التفكير النحويّ، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٢- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمّد بن مَكْرم الأفريقيّ المصريّ، لسان العرب، دارصادر، بيروت.

الهوامش:

(١) الزَّمخشري، المُفَصَّل، ص ١٣٥.
(٢) ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ٣/ ٣.
(٣) د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٩٤.
(١) الأزهريّ، شرح قواعد الإعراب، ص ١١٠.
(٢) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٩١.
(٣) مريم ١٩/ ٧١.
(١) أبو حيان، البحر، ١٨/ ٤٠٧، ٤٠٨.
(٢) أبو حيان، البحر، ١٨/ ٤٠٩.
(٣) الزَّمخشري، الكشاف، ٣/ ٣٣.
(٤) د.حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص ٢٠.
(١) د. علي أبو المكارم، أصوال التفكير النحويّ، ص ٣٠٧، ٣٠٨.
(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ١٦ / ١٤٩.
(١) اللسان (ورد) ٣/ ٤٥٧ "وَرِدَ عليه: أَشْرَفَ عليه، دخله أو لم يدخله،...ورجل وارِدٌ مِنْ قوم وُراد، ووارِدٌ مِنْ قوم وراد، ووارِدٌ مِنْ قومٍ وُرّادين، وكلُّ من أتى مكانًا منهلًا أو غيره فقد وردَه، وقوله تعالى وإن منكم إلَّا واردها ؛ فسره ثعلب فقال: يردونها مع الكفار فيدخلها الكفار ولا يدخلها المسلمون".
(٢) هود ١١/ ٩٨.
(٣) الأنبياء ٢١/ ١٠١- ١٠٢.
(٤) انظر: البغويّ، تفسير البغويّ، ٥ / ٢٤٦، ٢٤٧.
(٥) القصص ٢٨/ ٢٣.
(٦) انظر: أبو حيان، البحر، ١٨/ ٤٠٨- ٤٠٩.
(١) ابن منظور، لسان العرب، (ظرف)، ٩/ ٢٢٩.
(١) الزَّمخشري، المُفَصَّل، ص ١٠٤.
(٢) ابن الحاجب جمال الدين، الكافية في علم النحو والشافية في علمي التصريف والخط، ص٢٣، وانظر: وابن عقيل، شرح ابن عقيل، ٢/ ١٩١.
(٣) التعلّق: هو الارتباط المعنوي.
(٤) الجن ٧٢/ ١١.
(٥) أبو حيَّان، البحر، ٥٩١- ٥٩٢.
(١) الأزهريّ، شرح قواعد الإعراب، ص ١٢٠.
(٢) المرجع السَّابق.
(٣) انظر: ابن عقيل، ٣/ ١٩٧.
(١) انظر: القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٢١ / ٢٩٠.

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٩ / ٢٣٢.
(١) انظر: القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٢١ / ٢٩٠.